(٧)
مأساة كربلاء

نحن الآن فى يوم التاسع من المحرم سنة إحدى وستين وكان قد خرج من مكة فى الثامن من ذى الحجة عام ٦٠ هـ.. وها هو الآن بعد مسيرته يحاصر فى «كربلاء».

وفى يوم التاسع من المحرم خرج الإمام الحسين من معسكره فرأى آل بيته وأنصاره فى عددهم الضئيل يتأهبون للقتال.. وعلى البعد رأى جيش ابن زياد يتقدم بقيادة عمر بن سعد فى أكثر من أربعة آلاف مقاتل بينما كل ما مع الإمام الحسين لا يزيد عن ٧٢ من آل البيت وبعض الذين أصروا على الاستشهاد معه من أنصاره..

وكأنى بالسيدة زينب رضى الله عنها، وقد خرجت من خيمتها.. وتطل على الأفق.. والشمس تميل نحو غروب حزين.. وهى ترى شقيقها يواجه هذه الطغمة من اللئام، إنها تتمالك نفسها على أحزان عميقة، وهى تعلم علم اليقين أن أخاها سوف يلاقى ربه، وأن أحبابها من آل البيت سوف يلاقون حتفهم.. فهذه الآلاف التى حشدها ابن زياد لهم، قربا وتزلفا ليزيد ما كانوا يتركونهم للعودة من حيث أتوا.. إلا إذا أجبروا الحسين على مبايعة يزيد.. ولكن شخصية الحسين وتكوينه تأبى عليه الرجوع على ما أصر عليه.

فهو لن يبايع يزيد وقد خرج لقتاله.. وهم لن يتركوه يعود من حيث جاء.. ولن يكون الثمن إلا رأسه!

وكأنى بها تحبس دموعها وسط قفر هذا المكان وهى تنصت إلى الإمام الحسين، وهو ينادى عمر بن سعد.

واستمع عمر بن سعد إلى الإمام الحسين.

إن الحسين يطلب منه تأجيل القتال إلى الغد.

وقابل ابن سعد الاقتراح بسعة صدر.

لعله اعتقد أن الحسين سيعيد حساباته، وأنه سوف يؤثر السلامة على حرب لا أمل له فى الانتصار فيها.. وأنه سوف يبايع يزيد.. وينتهى الأمر.. ولكن ابن سعد قد ذهب خياله بعيدًا فليس الإمام الحسين الذى خرج من مكة عازمًا على أن يكون دمه الذكى علامة طريق أمام الجهاد فى سبيل الله، حتى يتقوض الحكم الأموى.

إن الإمام ما طلب هذه الهدنة.. هدنة لساعات.. لليلة واحدة.. إلا لسبب واحد .. فهو يعرف أنه هو المطلوب.. وأن العين عليه وحده.. فلماذا يقتل الآخرون!

استجاب ابن سعد، وسحب جيوشه بعيدًا عن معسكر الإمام الحسين حتى الصباح، وخرج الحسين إلى أصحابه ليقول لهم.. بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

- « أما بعد..

فإنى لا أعرف أصحابًا خير من أصحابى.. ولا أهل بيت أبر وأوصل من أهل بيتى فجزاكم الله خيرًا.. فقد بررتم وأعنتم. وإنكم لتعلمون أن القوم لا يريدون غيرى.. وأن يومى معهم غداً.

وإنى قد أذنت لكم جميعًا، فانطلقوا فى غير حرج.. ليس عليكم منى ذمام.

هذا هو الليل قد غشيكم، فانطلقوا فى سواده قبل أن يطلع النهار وأنجوا بأنفسكم»..

ولعل السيدة زينب وهى تسمع كلمات أخيها، وإيثاره أن يموت وحده، ولا يقتل معه أتباعه.. كأنى بها، وقد تساقطت من عينيها الدموع.. فهى تعرف أخاها.. إيمانًا.. وزهدًا.. وتقوى.. وورعاً إنها تعرفه.. العابد.. ندى اليد.. طيب القلب.. الشجاع الذى لا يهاب فى الحق لومة لائم.. إنه يؤثر أن يموت وحده.. ويستشهد وحده.. فبنى أمية لا تريد إلا الحسين..!

ولعل السيدة زينب وهى ترى هذا المشهد الفريد.. وقد أسدل الليل ستارته السوداء على الكون، قد تذكرت كلمة الإمام الحسين

قبل ذلك فهؤلاء الذين يطلبون دمه تقرباً وزلفى للسلطان.. فلا لانت قلوبهم.. إن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة.

قال لهم: بعد أن حمد الله وأثنى عليه!

أيها الناس:

إن رسول الله ﷺ قال:

« من رأى سلطانًا جائرًا مستحلاً لمحارم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنة رسول الله ﷺ، يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقًا على الله أن يدخله مدخله.

ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفىء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله. وأنا أحق من غيرى، فقد أتتنى كتبكم، وقدمت على رسلكم ببيعتكم، أنكم لا تسلمونى ولا تخذلونى، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم.

فأنا الحسين بن على، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسى مع أنفسكم، وأهلى مع أهلكم فلكم فى أسوة.

وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتى من أعناقكم، فلعمرى ما هى لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبى وأخى

وابن عمى مسلم، والمغرور من أغتر بكم، فخطكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه.. سيغننى الله عنكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»

ولعل السيدة زينب رضى الله عنها، دار فى مخيلتها ما حدث من أحداث عقب خطبة أخيها تلك.. فقد حذره الحر من القتل..!

ولكن الإمام لا يخشى الموت فقد قال له الإمام:

ـ أفبالموت تخوفنى.. ما أدرى ما أقول لك؟

ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه، ولقيه وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ فقال له:

ـ أين تذهب؟ فإنك مقتول.!

- فقال:

سأمضى وما بالموت عار على الفتى

إذا مـا نـوى حـقـاً وجاهـد مسلمًا

وأسى الرجـال الصالحـين بنفسه

وفـارق مثبـورًا يغـش ويرغـما

وما أكثر الأحداث التى تتابعت قبل أن يحاصر الحسين فى

كربلاء.. وها هو يطلب من عمر بن سعد أن يكون القتال فى الغد، حتى يقنع أتباعه بالتسلل فى ظلام الليل.

ولكنهم أبوا..

وصمموا على الاستشهاد معه..

كان الليل قد أسدل سدوله على الدنيا.. وبدأت أشعة القمر الشاحبة تخفف من وطأة الظلام.

عندئذ صاح العباس بن على:

معاذ الله والشهر الحرام.

ماذا تقول للناس إذا رجعنا إليهم؟

نقول تركنا سيدنا وابن سيدنا غرضا للنبال، ودرينة للرماح، وحرزًا للسباع، وفررنا عنه رغبة فى الحياة.

معاذ الله.. معاذ الله.

بل نحيا بحياتك.. ونموت معك.

وجاءت الأصوات من كل أتباعه أنهم حريصون على الموت معه، والاستشهاد بجانبه.. ولن يتراجعوا، ولن ينجوا بأنفسهم، متسللين فى الظلام.

وقال له ابنه علىّ وهو فى التاسعة عشر من عمره.

ـ ألسنا على الحق يا أبتاه؟

قال الإمام:

ـ بلى والذى أنفسنا بيده.

فقال له ابنه:

ـ إذن والله لا نبالى.

وتحدث أصحابه يعاهدونه على الموت فى سبيل الحق، فهم ما خرجوا لدنيا، ولكنهم خرجوا ابتغاء وجه الله.. وإظهار الحقيقة.

ويروى على بن الحسين متذكرًا هذه الليلة:

إنى جالس فى تلك العشبة التى قتل أبى صبيحتها، وعمتى زينب تمرضنى، إذا اعتزل أبى فى خباء له وعنده مولى أبى ذر الغفارى، وهو يعالج سيفه ويصلحه وأبى يقول:

يـا دهـر أف لـك مـن خليـل
من صاحـب أو طالـب قتيـل
وإنمـا الأمـر إلى الجـليـل
كـم لـك بالإشـراق والأصيـل
الدهـر لا يقنـع بالبـديـل
وكـل حـى سالـك السبيـل

فأعادها مرتين أو ثلاثًا حتى فهمتها، فعرفت ما أراد، فخنقتنى عبرتى، فرددت دمعى، ولزمت السكون، فعلمت أن البلاء قد نزل، فأما عمتى «السيدة زينب» فإنها سمعت ما سمعت، وهى امرأة وفى النساء الرقة والجزع، فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها، وأنها لمحاسرة حتى انتهت إليه فقالت:

- واثكلاه..

ليت الموت أعدمنى الحياة..

اليوم ماتت فاطمة أمى، وعلىّ أبى، وحسن أخى.. يا خليفة الماضى، وثمال الباقى..

فنظر إليها الحسين فقال:

ـ يا أُخيه.. لايذهبن حلمك الشيطان.

قالت السيدة زينب:

ـ بأبى أنت وأمى يا أبا عبد الله.. استقتلت نفسى فداك.

فرد غصته، وترقرت عيناه وقال:

ـ لو ترك القطا ليلاً لنام.

قالت:

ـ يا ويلتى.. أفتغصب نفسك اغتصابًا؟ فذلك أقرح لقلبى

وأشد على نفسى.. ثم جلجلت بصوتها، وخرجت مغشيًا عليها. فقام إليها الحسين فصب على وجهها الماء وقال لها:

ـ يا أُخيه.. اتقى الله وتعزى بعزاء الله.. واعلمى أن أهل الأرض يموتون.. وأن أهل السماء لا يبقون.. وأن كل شىء هالك إلا وجه الله الذى خلق الأرض بقدرته.. ويبعث الخلق فيعودون.. وهو فرد واحد.

أبى خير منى.

وأمى خير منى.

ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة.

فعزاها بهذا ونحوه وقال لها:

ـ يا أُخيه.. إنى أقسم عليك فأبرى قسمى:

لا تجلجلى علىّ صوتًا. ولا تدعى على بالويل والثبور إذا أنا هلكت.

ثم جاء بها حتى أجلسها عندى، وخرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض، وأن يدخلوا الأطناب بعضها فى بعض، وأن يكونوا هم بين البيوت إلى الوجه الذى يأتيهم منه عدوهم.

* * *

وظل طوال ليلته يصلى ويقرأ القرآن الكريم..

وأصبح الصباح.. يوم العاشر من المحرم.. صلى الإمام الفجر وأصحابه.. وتأهبوا لما سوف تأتى به الأقدار واندلع القتال.. جيش الإمام اثنان وثلاثون فارسًا وأربعون راجلاً.. ومع صغر حجمه، فقد عزموا على الموت.. ورفع الإمام الحسين عينيه إلى السماء داعيًا ربه:

«اللهم أنت ثقتى فى كل كرب.. ورجائى فى كل شدة.. وأنت لى فى كل أمر نزل بى ثقة وعدة.. كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة منى إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته.. فأنت ولى كل نعمة، وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة».

وما كان يظن أعداؤه أنهم سوف يواجهون شجاعة منقطعة النظير، وفرسان منتهى آمالهم الاستشهاد رغبة فيما عند الله لا ما عند السلطان.

وبدأت معركة بالغة القسوة والضراوة.. وعندما استشهد أصحابه، نزل الحسين إلى المعركة.. بطلاً مغوارًا، وفارسًا لا يشق له غبار.. يتهادى سيفه على الرءوس فتتساقط، وعلى الهامات فتنحنى.. وتكاثروا على الإمام وعلى رأسهم عدو الله

شمر بن ذى الجوش الذى كان يريد قتل الحسين تقربًا وزلفى لعبيد الله بن زياد.

ويحتدم القتال . . ويبرز فى القتال على بن الإمام الحسين . . لم يصل إلى العشرين من العمر وهو يصيح فى الأعداء.

- أنا علىّ بن الحسين بن علىّ . .

نحن ورب البيت أولى بالنبى . .

تالله لا يحكم فينا ابن الدعى.

ويقاتل بضراوة وشجاعة منقطعة النظير، وتتكاثر عليه السيوف والرماح حتى يقع فى أرض المعركة مثخناً بالجراح، ويراه الإمام الحسين فيحمله إلى الخباء حيث عمته السيدة زينب التى ترى ابن أخيها الذى كان ينبض حيوية وقوة وشجاعة، وها هو أصبح جثة هامدة تمزقها السيوف والنبال، فتبكى بكاءً حارًا وهى ترى قلوبًا لا ترق ولا تعرف الرحمة . . أى قلوب تلك التى تمزق بسيوفها أجساد أولاد النبى عليه الصلاة والسلام.

ووسط هذا الهول شاهد الإمام الحسين ابن أخيه القاسم بن الحسن، يستنجد به وهم يهوون عليه بالسيوف، حتى قتلوه، فتقدم الإمام الحسين وقتل قاتله، وانسكبت الدموع من عين الإمام وهو يرى جثة ابن أخيه، فيحتضنه وسط هول المعركة ويقول:

«عزيز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك.. أو يجيبك فلا ينفعك فى يوم كثر واتره وقل ناصره».

ويمضى النهار فى قتال مرير.. حتى أصبح الحسين وحده هو الذى يقاتل، بعد أن قتل جميع أصحابه.. وتكالبوا عليه حتى وقع على الأرض.. وتكاثرت عليه السيوف والرماح إلى أن استشهد.. ويقول الرواة وجد بالحسين حين طعن ثلاث وثلاثون طعنة وثلاثون ضربة..

ولم يكتف هؤلاء الناس بقتل الحسين، بل قطعوا رأسه، ليتقربوا بها إلى عبيد الله بن زياد.

* * *

مأساة تثير العديد من الأسئلة الحائرة والمحيرة.. ما الذى دفعهم بالتنكيل ببنى رسولهم كل هذا التنكيل؟

أى قلوب تلك التى تحملها هذه الصدور؟!

وهل هؤلاء الذين يصلون لم يعوا أنهم يصلّون على آل بيت الرسول فى هذه الصلوات، فكيف يذبحونهم وهم الذين يدينون بدين جدهم العظيم عليه الصلاة والسلام؟

هل السلطة والتقرب إلى السلطة والسلطان فى سبيل عرض دنيوى زائل فى مقابلة عداء الرسول وآل بيته، الذى أمرنا الله فى

قرآنه الكريم أن نضعهم فى المكانة التى تليق بمقامهم من الرسول عليه الصلاة والسلام؟

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ألم يخطر ببالهم تلك الآية الكريمة..!

ألم يعرفوا أن الرسول قال:

«أنا من حسين وحسين منى»..

أى أناس هؤلاء إذا كانت تنطبق عليهم أصلاً هذه الكلمة!

إنهم كلاب السلطة.. الذين يلعقون الأحذية ولا يحصلون إلا على أقل القليل.. حتى أقل القليل هذا لا بركة فيه، ولا يسمن ولا يغنى من جوع..

لقد استشهد الإمام الحسين..

وعندما تولى النهار، وغربت شمس هذا اليوم الحزين، وكان القمر يرسل أضواءه الشاحبة على هذه الأرض التى ارتوت بدماء أقرب الناس إلى رسول الله.. كان هذا يعنى أن هذه الأرواح الطاهرة انتقلت إلى أكرم جوار.

أما هؤلاء الذين اقترفوا هذه الآثام التى لا تغتفر فقد نالوا عقابهم فى دنياهم.. وليس لهم فى الآخرة من نصيب.

* * *